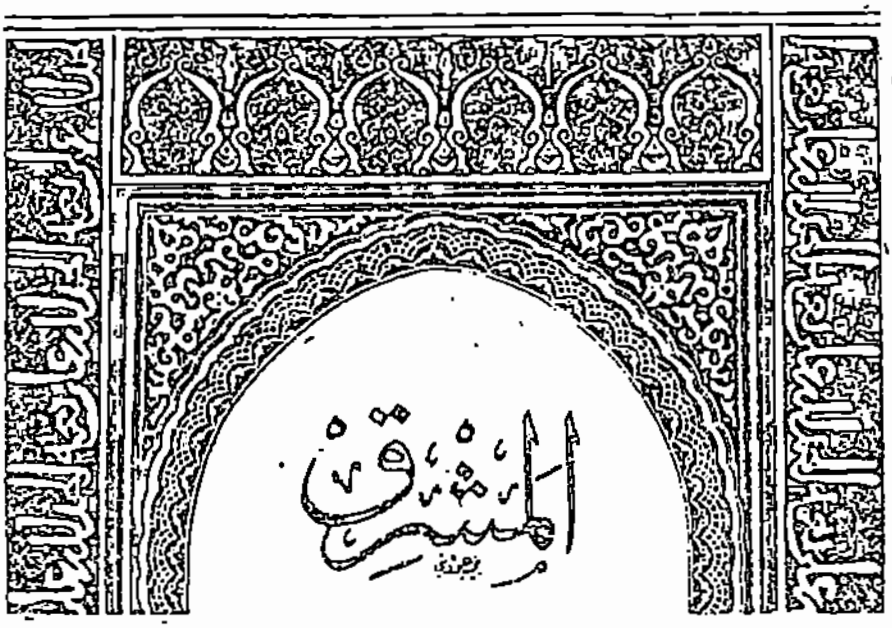

السنة الخامسة والثلاثون — كانون ٢ – اذار ١٩٣٧

الاب سباستيان رونزفال

١٨٦٥ – ١٩٣٧

في العشرين من كانون الثاني ١٩٣٧، انطفأ، في بيروت، الاب سبستيان رونزفال اليسوعي، الاستاذ في جامعة القديس يوسف، بعد ان قضى شهرًا في عذابات مؤلمة لاذعة. وكانت الأمراض المتناوبة، مع جسمه المبكر، وحالة عينيه السيئة، تضع العقبات، منذ عدة سنوات، بينه وبين العمل المنتج الذي ظلّ مثابرًا عليه بهمّة وعزم لا يباريان.

ولد الاب رونزفال في ٢١ تشرين الاول ١٨٦٥، في مدينة فيليبوبولي حيث كان ابوه، فرديناند رونزفال، ترجمانًا لقنصل فرنسة. وقد كان شاهد عماد الطفل، اي عرّابه، وكيل القنصل، وهو شارل-فرنسوا-نوبيل شامبوازو (Champoiseau)، ذاك الرجل المعروف بحسن ذوقه، وسموّ خلقه، من لا يزال متحف اللوفر مدينًا له «بانتصار ساموتراس». ومن عجيب الاتفاق ان

الاب رونزڤال خلف عرّابه ، سنة ١٩٠٩ ، في مجمع الرقّ والآداب ، بصفة مراسل .

ولم يلبث فرديناند رونزڤال أن نُقل الى ادرنة ، فالى بيروت . فدخل اولاده الخمسة كلية القديس يوسف ، سنة ١٨٨٥ ، ليتابعوا دروسهم .

وفي السنة ١٨٩٠ ، كان الشاب سباستيان رونزڤال ينهي خدمته العسكرية في اكس - أن - پروڤانس . وبعدها دخل دير الابتداء للرهبان اليسوعيين في انكلترة . وفي السنة ١٨٩٣ عاد الى بيروت . وفيها قضى حياته كلها ، ما عدا سني الحرب ، وسنة درس في باريس .

وكان الاب رونزڤال يعرف ، منذ صغره ، عدا الفرنسوية ، التركية ، واليونانية . فاهتمّ ، فور وصوله الى لبنان ، بدرس العربية وما اليها من اللغات الساميّة . وكان من نتائج حسه الباكر ان تعزّز فيه الميل الى حياة الدرس الهادئ في حقل الادب والتاريخ . فنشر في السنة الاولى من « المشرق » ، سنة ١٨٩٨ ، مقالات مختلفة اهمها بحثه في « زنوبيا ملكة تدمر » وهو اوّل بحث علمي دقيق يكشف عن تاريخ بادية سورية على عهد الرومان ، واول اثر من تلك المساعدة الادبية القيّمة التي لم ينفكّ الاب رونزڤال يوليها مجلّة « المشرق » حتى وفاته ، وقد نشر ، وهو يعاني آلام مرضه الاخير ، ثلاثة اوصاف لكتب جديدة ظهرت في الجزء الثالث .

تنقّلت ابحاث الفقيد مدةً بين التاريخ والادب ، حتى كانت السنة ١٩٠٠ ، فبدأ ناحية جديدة ، هي ناحية علم الآثار او العاديّات . فأرصد له مجمع الرقّ والآداب في باريس اعتمادًا للحفريّات في دير القلعة ، قرب بيروت ، حيث كان دي برتو (de Bertou) قد تحقّق موقع خمسة هياكل . فقام الاب رونزڤال ، سنة ١٩٠١ و١٩٠٢ ، بحفريّات تمهيدية في اراضي الدير ادّت الى اكتشافات مهمة منها : تمثال لجوبيتير البعلبكي ، وتقدمات غريبة لبعل مُرقّد وسيا . ومنذ ذاك الحين ، تعيّنت موضوعات العلم الخاصّ بالفقيد ، الذي لم يُهمله يوماً من حياته ، حتى انه في اواخر ايامه كان يُصلح مسوّدات بحث جديد دعاه « جوبيتير البعلبكي : حديث وقديم » وضمّنه زبدة آرائه في العبادات السورية ، مستندةً الى ما جمعه

من وثائق واسانيد بشأن اله بعلبك ، طول ثلاثين سنة .

وفي السنة ١٩٠٢ ، فتحت جامعة القديس يوسف ابواب « معهدها الشرقي » ، راميةً الى تمهيد سبيل الشرق أمام المستشرقين خاصةً ، فيسهل عليهم فهم بلادنا في مختلف مظاهرها . وكان الاب رونزفال قد درس في باريس ، مدة سنة ، اصول تدريس الرقم السامية والآثار الشرقية ، فكُلّف تدريس المادّتين في المعهد المذكور ، من السنة ١٩٠٤ الى السنة ١٩١٣ . وكان يدرّس ، فوق ذلك ، بعض الاحيان ، اللغة السريانية ، وجغرافية الشرق الادنى التاريخية . وهكذا كان العقيد مع الآباء لويس شيخو ، ولامنس ، وجلابرت ، اركان المعهد الجديد . ولا تنسى المكتبة الشرقية جزيل اهتمامه بتنظيمها وزيادة مجلّداتها .

ثم كانت الحرب الكبرى . فنُفي الاب رونزفال من بيروت ، مع مَن نُفي ، على اثر دخول تركية الحرب ، في تشرين الثاني ١٩١٤ . فاتجه الى رومة حيث استقبله « المعهد الكتابي البابوي » ، وبعض اساتذته من قدماء تلاميذ الاب في بيروت . وانتقل بعد ذلك الى القاهرة ، فالى الاسكندرية . وفيها باشر عملاً مهماً بمساعدة الابوين بوفيه - لابيير (Bovier-Lapierre) وستراززلّي (Strazzulli) ، وهو القيام بالحفريّات في اطلال اليفتين او اصوان ، حيث كانت تقيم جالية عسكرية يهودية على العهد الفارسي . وكان امله ان يجد ، بعد ساخاو وكليرمون - گانو ، وثائق عن عقائد اليهود وعاداتهم ، زمن العهد القديم . على ان هذه الحفريّات لم تُتابع لسوء الحظ ، فتبدّد الأمل قبل تحقّقه .

وكان للاب رونزفال ان يعود الى لبنان فيتابع دروسه بجدّ لم يثنه الّا مرض عينيه ، فيمتنع قليلاً ، ثمّ يعود . وفي هذه المدّة باشر حفريّات جديدة في سوجن ، قرب سفيرة ، على ٣٠ كيلومترًا شرقي حلب ، وغايته ان يكتشف الهيكل او القبر ، الذي كانت تُحفظ فيه ، في القرن الثامن ق . م . ، معاهدة الصلح المدوّنة بالآرامية بين الملك عباي ، وبَرْگايا ، وسَيعيل . وكان هذا الاخير ملكاً على أرپَد ، وهي اليوم أرفد شمالي غربي حلب . وقد عهد صاحبا هذا الاثر ، السيّدان عسّال ودُمبقلي ، من تجّار الأثريات في حلب ، الى الاب رونزفال بان ينشره ويعلّق عليه . فقضى الاشهر الطوال في قراءته وتفهّمه وشرحه وتبيان

اهميته العظيمة في تاريخ الجزيرة العليا[1] . بيد ان تل سوجين لم يُبدِ شيئاً من اسراره .

. . .

لم يعرض الاب رونزفال في تآليفه للموضوعات العامّة والابحاث الشاملة . فلم ينشر مثلاً « تاريخ فينيقية » الذي طُلب منه ، عند عودته بعد الحرب . ذلك انه كان اعمق من ان يكتفي بالتقريبات والفرضيّات والاستنتاجات التي لا يتخلّص منها من قام بعمل بنائيّ فسيح التصميم كهذا العمل ، ولم يكن له من الاسانيد الّا القليل والمتفرّق والموجز . ثم ان معارفه الواسعة التي كانت تضطرّه الى تغذية ثقافته بمطالعات جمّة في مختلف العلوم ؛ وصحته الضعيفة التي كانت تفرض عليه الراحة دفعات في السنة ، كل ذلك كان يحول بينه وبين التأليف الطويل المتتابع . اما آثاره المتفرّقة فقائلة خاصّة في « مجموعة المعهد الشرقي » (*Mélanges de la Faculté Orientale*) من السنة ١٩٠٦ الى السنة ١٩١٤—١٩٢١ ، المدعوّة بعد الحرب « مجموعة جامعة القديس يوسف » (*Mélanges de l'Université St Joseph*) من السنة ١٩٢٢ الى السنة ١٩٣٧ . ففيها نشر ، منذ السنة ١٩٠٩ ، « ملاحظاته ودروسه في الاثريات الشرقية » وقد خُتمت سلسلتها الثالثة بالبحث المذكور آنفاً عن « جوبيتير البعلبكي » . ولم يخفَ على العلماء ما اظهر فيها الفقيد من سعة المعارف ، ودقّة النظر ، وصواب الملاحظة ، وقوّة الاستنتاجات المهمّة . اما تفاصيل هذه الابحاث ، والدروس النقدية التي كان يخفيها الاب رونزفال بالكتب الجديدة ، فستظهر في مقدّمة المجلّد الثاني والعشرين من « مجموعة جامعة القديس يوسف » عن السنة ١٩٣٨ ، وفي الفهارس العامّة للمجلة المذكورة (المجلّد العشرون الظاهر قريباً) . من هذه الابحاث يبدو ان درس الرسم العبرانية والفنيقية والآرامية والتدمرية والسريانية ، مع تاريخ الشرق وجغرافيته القديمين ، وتاريخ العبادات السامية ، والاثريات المقارنة في الشرق الادنى ، كلّها كانت تتنازع اهتمامه الدائب ، ولاسيما الأثر ، الحجر او المعدن المنحوت او الرقيم على

[1] راجع *Mélanges de l'Université St Joseph*, XV, 1930-1931, p. 237-260, 13 pl. ou facsimilés.

اختلاف مظهره ، ذاك الأثر الذي كان يحمله اليه بائع « الانتيكات » الغافل ، او السمسار المغري ، فيعرضه على الاب ليعرف صحة نسبته ومبلغ ثمنه ، وكان الاب يُسرع بالتقاط صورته او رسمه ليدرسه في ما بعد . وكم من الآثار المهمة اخرجها من الغموض التجاري ، بل من الضياع في ما لو نجح السماسرة فهرّبوها خارج الحدود . وكان الاب يلفت نظر امناء المتاحف لأشهر هذه الآثار ، سواء في ذلك المتاحف الوطنية والاجنبية ولاسيما متحف اللوفر . وفي طليعة المعجبين به ، وشاكري اهتمامه ، نذكر السيدين ادمون پوتيه (Pottier) وارنست بابلون (Babelon) .

ولا يسعنا الّا الاشارة الى عمل جدير بكل تقدير ، باشره الاب رونزفال منذ السنة ١٩٢٧ . وهو اعداد كل مجموعاته غير المنشورة ، مع نتائج ما قام به من الابحاث العلمية ، وترتيبها على طريقة يستفيد منها خلفاؤه . ولنا الامل بنشر بعض هذه الآثار في مجموعة ندعوها « وثائق الاب رونزفال » فيقدر العلماء ، هذه المرة ايضاً ، ما قام به هذا العامل الرادع المندفع ملاحظةً بصيرة دائمة ، من خدمات جليلة في سبيل الاثريّات اللبنانية والسورية ، قبل ان يكون في لبنان وسورية متاحف وطنية ودوائر اثرية .

ولقد كان من مشاغل الاب رونزفال ان يُطلع ارباب العلم والتاريخ من ذوي اللسان العربي على نتائج ابحاث الاوربيين في تاريخ الشرق القديم وآثاره المتنوّعة . وفي هذا المجال ايضاً كان من السابقين ذوي البصيرة النافذة ، كما تشهد له سلسلة ابحاثه في « المشرق » ، ولا سيما اوصافه للمطبوعات الجديدة التي لم يفتأ يخصّ بها المجلة منذ السنين الطويلة . وقد رأينا ان نثبت ، في ختام هذه الكلمة ، عناوين اهم مقالاته ، تذكيراً نقوده للكتب لمن يشاء ان ينقّش عنها في فهارسنا العامّة . كل هذا يدلّنا على ان الاب الفقيد لم يكن فقط من « ارفع العاملين في علم الآثريات الشرقية » كما كتب عنه بعض رجالات العلم ؛ بل كان ، فوق ذلك ، صديقاً مخلصاً للبنان وسورية . وقد اقرّت له بذلك الانعامات الرسمية . فمُنِح مراسلاً لمعهد فرنسة منذ السنة ١٩٠٩ ، ومُنح المدالية الفضية من وسام الاستحقاق اللبناني في ٣١ كانون الاول ١٩٢٩ .

لم يشتغل الاب رونزفال يوماً واحداً في سبيل شخصه ، ولا في سبيل غاية بشرية محصورة ، انما كان عمله المتواصل ودأبه الدائم في سبيل الغايات الفسيحة والمرامي السامية . لقد خصّ بهـا حياته منذ كان يافعاً ، وفي سبيلها قيّد جميع اعماله ، فعاش هادئـاً ، وادعاً ، مستقيماً ، ومات كذلك شجاعاً في الآلام ، بسيطاً مطمئناً في الايمان.

قلم التحرير

اهم ابحاث الاب رونزفال
في « المشرق »

النيازك ونجم المجوس ١ [١٨٩٨] ٤٩–٥٦

زينب (الزبّاء) ملكة تدمر ١ [١٨٩٨] ٤٣٣–٤٤٠ ؛ ٤٩٣–٥٠٠ ؛ ٥٣٧–٥٤٣ ؛ ٥٨٨–٥٩٣ ؛ ٦٣٧ – ٦٤٣ ؛ ٦٨٦–٦٩٤ ؛ ٨٢٣–٨٢٨ ؛ ٩١٨–٩٢٥ ؛ ٩٨٧–٩٩٥ ؛ ١٠٣١–١٠٣٩ ؛ ١٠٥٧–١٠٦٦

أبنية قديمة وحديثة ١ [١٨٩٨] ٥٧١–٥٧٤

أصل كلمة « زنديق » ١ [١٨٩٨] ٦٨١–٦٨٤

أخبار علمية ١ [١٨٩٨] ٧٨٧–٧٩٠

لاقيس ولا ثارفيل ٢ [١٨٩٩] ٤٥١–٤٦٠

في اهمية مطالعة تآليف الآباء القديسين ٢ [١٨٩٩] ٧٨١–٧٩١

قراءة بعض الكتابات الشرقية وتفسيرها ٣ [١٩٠٠] ٣٢–٣٩ ؛ ١٥٧ – ١٦٦ ؛ ٢٥٨–٢٦٧ ؛ ٣٢٣–٣٢٥ ؛ ٤١٩ – ٤٢٣ ؛ ٥١٤–٥٢٣ ؛ ٧٣٧–٧٤٣ ؛ ٨٢٨–٨٣٢

البحث الصحيح في ذخائر آلام المسيح ٣ [١٩٠٠] ٣٣٧–٣٤٨

كتابة معتبرة وُجدت في مصر	٤ [١٩٠١]	١١٣٤—١١٣٥
اشتقاق الحروف العبرانية	٨ [١٩٠٥]	١٢٦—١٣٠
اقدم وصف لآثار دير القلمة	٨ [١٩٠٥]	١٥٨—١٦٢ ، ٢٢٠—٢٢٨
اول كتابة فينيقية مكتشفة في مالطة	٨ [١٩٠٥]	٣٣٥—٣٣٦
احرف اللغة العيلامية	٨ [١٩٠٥]	٧٧١
اكتشاف مدارج بردية ارامية في مصر	١٠ [١٩٠٧]	٦٧٣—٦٨٣
كتاب شرقية جديدة مكتوبة على البردي ومكتشفة في مصر	١١ [١٩٠٨]	٥١—٦٠ ، ١١٨—١٢٦
اكتشاف اثر فينيقي	١١ [١٩٠٨]	١٦٤—١٧١
كتابة ارامية لِزَكَر صاحب حماه ولَعَش	١١ [١٩٠٨]	٣٠٢—٣١٠
كتابات قبرس الفينيقية	١٢ [١٩٠٩]	٢٨٦—٢٩١ ، ٦٨٣—٦٨٥
تمثال جوبيتير البعلبكي في السُخنة	١٤ [١٩١١]	٣٠٧—٣٠٩
تاريخ قصر الخَضر	١٥ [١٩١٢]	٥٠٩—٥٢٣
تمثال جديد معدني لجوبيتير البعلبكي	١٦ [١٩١٣]	٥٢٢—٥٢٦
اثر مدفن سوري قديم	١٦ [١٩١٣]	٨٣٣—٨٣٥
وصف بعض العاديات السورية	٢١ [١٩٢٣]	٣٨—٤٦